المحاضرة الثانية

موضوع المحاضرة : حضارات العصر الحجري القديم الأسفل

تمهيد حول مفهوم ما قبل التاريخ والعصور الحجرية:

يبحث علم ما قبل التاريخ في أصل وتطور حضارات الإنسان قبل معرفته للكتابة، حيث تتمثل مخلفاته الحضارية في بقايا مادية أثرية، كالأدوات الحجرية والعظمية ورسومات ونقوش جداريه، حيث أن دراسة هذه المخلفات تسمح لنا بإعادة تصوير وتصميم الحياة اليومية لإنسان ما قبل التاريخ في بيئة وزمن معينين.

وإذا كان هذا المفهوم لعلم ما قبل التاريخ يجعله يقترب من مفهوم علم الآثار، لكونهما يبحثان في موضوع واحد، وهو معرفة مختلف ميادين حياة الإنسان منذ نشأته، إلا أن علم ما قبل التاريخ ينفرد عن علم الآثار من حيث منهجية البحث، لأنه إذا كان علم الآثار يعتمد أساسا على النصوص الكتابية لتدعيم وتصحيح التاريخ بشواهد مادية، فإن علم ما قبل التاريخ يستند على العلوم الطبيعية مثل :جيولوجية الزمن ال ا ربع، وعلم المستحثات(الإنسانية والحيوانية)، وعلم النبات القديم، والجيومرفولوجيا، وكذلك على العلوم الفيزيائية فيما يتعلق بتأريخ الشواهد المادية لوضعها في تسلسل زمني لحضارات ما قبل التاريخ.

و قد بدأت عصور ما قبل التاريخ مع ظهور أول آثار الوجود الإنساني ، ودرج علماء الآثار على تسمية هذه العصور بالعصور الحجرية، لأن معظم الآلات والأدوات في تلك العصور كانت تصنع من الحجارة بالدرجة الأولى والقليل منها كان يصنع من الخشب والعظام والقرون والعاج أو الأصداف .وتعارف هؤلاء العلماء على تقسيم هذه العصور إلى ثلاثة عصور رئيسية هي :العصر الحجري القديم(الباليوليتي)، العصر الحجري الوسيط(الميزوليتي)، والعصر الحجري الحديث (النيوليتي)، واستمرت صناعة الآلات الحجرية في بداية عصر تصنيع النحاس، ولذلك سُمي بالعصر الحجري المعدني .وقسّم المهتمون بالعصور الحجرية كذلك كل عصر رئيسي إلى عصور ثانوية وأدوار متميزة على أساس طرق صناعة الأدوات وأحوال المعيشة.

ويتفق المختصون في دراسة ما قبل التاريخ على أن بداية نشأة الحياة في شمال إفريقيا تعود إلى نهاية الزمن الجيولوجي الرابع ، وبالضبط إلى عصر البلايستوسين الذي كانت فيه إفريقيا تمر بمرحلة تخللتها فترات صحو يقابلها زحف وتقهقر جليدي في القارة الأوربية . إلى جانب هذه العصور المطيرة والفترات الجافة بالشمال الإفريقي، لوحظت بعض التغيرات الفيزيوغرافية الهامة التي من بينها تغير خط الساحل وتكوين المدرجات النهرية، وظهور الأودية الجافة، كما نشأت بعض الواحات وظهرت الصحراء بمظهرها الحالي.

وان العصر الحجري القديم الذي يمثل المرحلة الأولى من مراحل التطور الحضاري للإنسان في الشمال الإفريقي يعني الفترة القديمة للصناعات الحجرية، وتمتد من حوالي1 ، 3مليون سنة إلى حوالي 11 ألف سنة قبل الميلاد، وتقابل كل من فترتي البلايستوسان الأسفل والأوسط بالنسبة للتقسيم الجيولوجي، ومن منظور التزمن الجليدي تساير جليديات بيبر و دوناو، أما بالنسبة لتزمن بلاد المغرب فيمتد الباليوليتي من المرحلة المناخية للعرقوبي إلى مرحلة السلطاني . ونظرا لطول هذا العصر فإن المختصين قسّموه إلى ثلاث فت ا رت متفاوتة الزمن وهي:

الباليوليتي الأسفل (Lower paleaolithic) ، والباليوليتي الأوسط (Middle paleaolithic) ، الباليوليتي الأعلى (upper paleaolithic) .

تعريف الباليوليتي الأسفل وخصائصه البيئية- :

استغرقت مرحلة الباليوليتي الأسفل مدة طويلة من الزمن، ما يقرب من 411111 سنة، تمكن الإنسان خلالها من أن يكمل صفاته الإنسانية ويكتسب صفة الإنسان الصانع، وذلك في ظل بيئة متنوعة تضم الجبال والهضاب، السهول والوديان، الصحراء، الغابات، الكهوف و المغارات ، وفي ظل ظروف مناخية قاسية متفاوتة، بين أمطار غزيرة وفترات جفاف، حيث كان الإنسان يلجأ إلى الكهوف و المغارات الصخرية حين تسوء الأحوال الجوية، وتشتد قسوة الظروف المناخية أثناء الفترات المطيرة، في حين كان ينطلق إذا ما انتهت الأمطار للعيش في السهول .

وخلال هذه الفترة الزمنية الطويلة كان مورد الغذاء الرئيسي هو الصيد بنوعيه البري والبحري، وكانت جماعات الصيادين تعيش في أعداد صغيرة، ولم يكن هناك اتصال بين المجموعات المختلفة .وقد اقتضت عمليات الصيد وجمع الطعام والتقاطه صناعة بعض الأدوات الحجرية.

الأدوات الحجرية: (Stone tools) -

وعندما نتحدث عن" الإنسان صانع الأداة "نميل إلى التفكير في الأدوات الحجرية على أنها أقدم الأدوات التي صنعها الإنسان، والحقيقة أن الاحتمال الأقرب إلى الصحة هو أن الإنسان قبل أن يستغل الأحجار في صناعة الأدوات، استعمل مواد أخرى أقل صلابة من الحجر، ولكن لا يمكن إثبات ذلك حتى الآن لأن مثل تلك المواد الرخوة التي يمكن أن تكون قد استعملت إما تفتت بمرور الزمن، و إما أنها لا تعطي أدلة قاطعة على أنه قد صنعت منها أدوات بمعرفة أقدم إنسان .ولما كان الحجر صلبا وغير قابل للفناء نسبيا، فمن الطبيعي أن يكون مادة أول أدوات صنعها الإنسان .

كما أن الصناعة الحجرية تتميز بخصائص فيزيائية تجعلها تختلف عن القطع الحجرية الناتجة عن الانكسار الطبيعي، عندما يطرق الإنسان بقادح على قطعة من صخرة تتحول الضربة إلى قوة حية نتيجة الاصطدام، فالقوة الحية تتحول إلى حركات جزئية التي تنتشر داخل الصخرة في كل الجهات، والحركات تبطل فعاليتها الواحدة تلو الأخرى كلما اقتربت من الوسط الداخلي للصخرة، لكن باقترابها من السطح الخارجي حيث يتواجد الهواء تكون لها فعالية كبيرة، و اثر ذلك تنفصل الشظية من النواة، ويحمل الوجه الداخلي للشظية الخصائص الفيزيائية التي تثبت بأن الشظية من تشكيل الإنسان.

ويتضح من دراسة الأنماط الفعلية للأدوات التي صنعها إنسان العصر الحجري، وتطبيق الطرق التجريبية على كسر الحجر أنه لم يمكن هناك إلا عدد بسيط من الطرق التي يمكن العمل بها في الحجر بنجاح، والتي يمكن بها فصل الشظايا الصغيرة والكبيرة أثناء عملية تشكيل الأداة من كتلة الحجر .وأول وأبسط طريقة فنية هي دق قطعة حجر على قطعة أخرى .وإذا تم هذا بطريقة خاصة ، بحيث تكون الزاوية التي يحدث عندها التصادم صحيحة، فالشظية سوف تنفصل، أما إذا لم تكن الزاوية صحيحة، فإن نتيجة ضرب قطعتين من الحجر في بعض هو تحطيم القطعة الأصغر أو عدم حدوث كسر على الإطلاق.

وقد اُكتشف أنه يمكن تطبيق نفس القواعد بطريقتين مختلفتين، إما أنه يحمل قطعة الحجر التي يريد تشكيلها في إحدى يديه، ويحمل في اليد الأخرى قطعة أصغر يستعملها كمطرقة، أو أنه يحمل قطعة الحجر التي يريد تشكيلها في إحدى يديه أو في كلتا يديه ويدقها عند زاوية مناسبة على نقطة بارزة من الحجر الذي على الأرض .ويطلق على الطريقة الأولى" طريقة المطرقة والحجر"، ويطلق على الطريقة الثانية" طريقة السندان . [3] "وقد تطورت الصناعات الحجرية بتطور الإنسان وتعدد أغراضه ، وحاجاته، فكانت في البداية عبارة عن صناعة حصوية وشظية بسيطة لتصبح في آخر المطاف صناعة قزمية معقدة ومتشعبة.

حضارات الباليوليتي الأسفل- :

ينقسم الباليوليتي الأسفل الذي يعتبر أقدم فت ا رت الصناعات الحجرية إلى فترتين صغيرتين هما: الباليوليتي القديم جدا(العتيق)، والقديم .[1] ويمكن تقسيم أدوات هذا العصر بقسميه من حيث المراحل الحضارية إلى ثلاثة أقسام وهي : الحضارة الحصوية (Pebble culture) ، والحضارة الشيلية (الأبيفيلية)، والأشولية.

واذا ما فحصنا الباليوليتي القديم جدا(أو العتيق)الذي يمتد من حوالي1 ، 3مليون سنة إلى حوالي4.1 مليون سنة قبل الميلاد، نجده يضم حضارتان متمايزتان من حيث المحتوى الصناعي، وهما الشونغورية، والحضارة الألدوانية.